وإذا كان الحكيم قد حاول أن يفصل بين الفن والحياة معتقداً أن الكتابة في الحياة الواقعية أو الدعوة إلى فكرة اجتماعية تؤدي إلى الضعف في الناحية الفنية، وتكون «على حساب الفن»[14]. فإن هذا خطأ كبير، لأن الفن لا يتعارض مع الحياة الواقعية والدعوة إلى مبادىء خاصة.

لم يعد هناك جدال حول العلاقة بين الفن والمجتمع، والفن والحياة حتى بالنسبة إلى أولئك الذين يعيشون في أبراجهم العاجية، ويسجدون لربة الفن وحدها كما يدعون. الفن موقف، ومهما تنوعت مذاهبه واتجاهاته وتياراته، ومهما طوح أصحابه بالسمو إلى العوالم العليا أحياناً، أو بالانصهار في المشكلات الاجتماعية أحياناً أخرى، فإن الحياة هي التي تفرض ذلك الموقف. ولا يستثنى من ذلك موقف الحكيم الذي حاول في مرحلة من مراحل فنه أن يثبت أنه إنما يعيش للفن دون سواه.

إن فكرة «الفن والمجتمع» ينبغي ألا تقتصر ـ ولا يمكن أن تقتصر ـ على الدعوات الفجة إلى جعل الفن مادة للإصلاح الاجتماعي أو دعاية لأفكار معينة. ولو كان الأمر هكذا لوجدنا المبرر للحكيم في جزعه من هذا الربط الطفولي وهروبه إلى أبراجه العاجية. إن الفكرة تتسع لتشمل جوانب أهم وأشمل. والحكيم عندما يطرح في مؤلفاته ـ وخاصة المسرحية منها ـ مشكلات تبدو عالمية إنسانية [مشكلة القوة والقانون في «السلطان الحائر»، مشكلة الإنسان والمكان في «شهرزاد»، مشكلة الإنسان والزمان في «أهل الكهف».. إلخ] ويحاول أن يؤكد فيها أنه إنما يتسامى عن الصغائر الدعائية والإصلاحية للفن، يظل ـ برأينا ـ فناناً مرتبطاً بالمجتمع على نحو ما.

فالقضايا الإنسانية الكبرى التي تبدو للوهلة الأولى غير مرتبطة بمجتمع معين نجدها تكتسب سماتها المحددة في نهاية المطاف، وتظهر، بعد التحليل، مرتبطة بالأدب العربي وبالروح المحلية، راسية فوق تراب له لونه ورائحته الخاصة، متجهة في روحها إلى الإنسان، سواء كان في الأرض العربية أم في أي أرض؛ فالأديب مرتبط بأبناء بيئته ومجتمعه، «لا يتوجه إلى كل الناس إلا